مصطفى المسناوي

حدود البداية

١ ــ مدخل :

كانت السماء جميلة زرقاء ، والارض يانعة الخضرة . وكانت العصافير المذهبة الاجنحة تحلق في السماء بمرح . وعندما سألت نفسي : أين أنا ؟ انقلب كل شيء : السماء والارض والطيور . وتحول العالم ــ كل العالم ــ الى شيخ قديم يهم بالبكاء في أية لحظة .

٢ ــ كيف حدث الامر (محاولة توضيح) :

طوح أستاذ الفلسفة بقطعة الطبشور الى ركن القسم ، وسألنا بعد أن وضع يديه في جيبي سرواله :

ــ من لديه سؤال ؟

رفعت للتو اصبعي :

ــ أستاذ !!

ــ نعم ؟

ــ أين أنا ؟؟

رسم بسمة هازئة على وجهه ، لكنه عاد فمحاها . وحدق في وجهي في شده وحيرة . ثم تراجع باضطراب الى الخلف ، ترك جسده يهوي على مقعده ، وضع مرفقيه على الطاولة ، أسند رأسه بيديه ، وأخذ يفكر في لا شيء .

(... وأخذت قطرات المطر السوداء تنهال على الارض بقسوة تريد ان تتجاوزها الى الباطن ، غير انها عجزت ، فكونت سيولا وأنهارا سرعان ما حملت الزرع والنسل وسافرت الى اللانهاية ...)

اخيرا . عندما بدا انه هدأ : وقف . أمسك بكفيه زاويتي الطاولة اللتين كانتا من جهته ، وبصعوبة همس :

ــ لا أعرف ..

* * *

في الساحة ، تأبط ذراعي بيده الخالية وقد خيمت على وجهه سحابة شتائية قاتمة ، وبدأ يتكلم . ظننت انه يحادثني . لكنني اكتشفت في النهاية انه انما كان يخاطب نفسه :

ــ ماذا يعني هذا يا صديقي . لم يسبق لي قط ان سألت ، طيلة العمر المديد . آه . وعندما ألقي السؤال ، اكتشفت بسمة العجز الساخرة . لو أعرف أين تختبيء كل الاسئلة ، ولماذا لا تكون ظاهرة منذ البداية ، ومن كان .. ولكن .. لا فائدة .. يقولون « الاسئلة أفضل من الاجوبة .. في الفلسفة » هه !.. ماذا استطعت ان اعرف :

الفلسفة كلمة يونانية معناها حب الحكمة .

كانت تعني في البداية « المعرفة العقلية الشاملة » .

كانت تضم كل العلوم .

لكن العلوم أخذت تنفصل عنها : واحدا واحدا .

حتى أصبحت تعني الآن « المعرفة العقلية المجردة » .

« المعرفة العقلية » التي ترتفع عن الواقع المحسوس الى واقع اكثر رحابة واتساعا ..

الى ما وراء الطبيعة ..

وهه ...

وقد كنت منتبها ــ بنشوة وخجل ــ لذات الاستاذ التي أخذت تتطاير عنها الاوراق والاحجبة السوداء ، فلم أنتبه لرائدي الفضاء الاميركيين ، حتى كانا واقفين مباشرة امامنا .

توجها بالكلام مباشرة الى الاستاذ ، الذي فغر فاه مندهشا ، وترك يده تسقط من ذراعي :

ــ هللو .. هناك رحلة الى الشمس يا أستاذ .. يلزمنا واحد ، فأتينا لاحضارك معنا .. أسرع .. المركبة ستقلع بعد ثوان !

واقتربا منه بسرعة خارقة منعته حتى عن ابداء الاحتجاج ، ثم حملاه بينهما وتوجها نحو باب الثانوية ، وهو يطوح بيديه في الفراغ محاولا التخلص .

تبعته جاريا :

ــ أستاذ .. أستاذ ..

دار بوجهه نحوي ، ورسم بذراعيه دوائر في الهواء ، ثم نطق في يأس :

ـ لا أعرف .. لا أعرف ..

لم أعرف بماذا أرد ، فتسمرت في مكاني ، بينما واصل ـ بصوته الآخذ في الابتعاد شيئا فشيئا ـ :

ـ لست أنا كل شيء .. أمامك الادب .. الجغرافيا .. التاريخ.

واختفيا به وراء باب الثانوية الاسود الكبير الذي أقفلاه بهدوء خلفهما .

٣ ـ محاولة ثانية لتوضيح جانب الحدوث الآخر :

في المنزل طرحت السؤال على كتاب التاريخ ، فأخذ يردد على مسامعي تواريخ وحوادث وأسماء غريبة . تتكرر وتمتد بلا نهاية ، كمقطع في اسطوانة مشروخة : فلان فتح كذا في سنة كذا ، فلان بنى كذا في سنة كذا ، فلان غزا كذا في سنة كذا ، فلان كان صالحا ، فلان كان قويا وجبارا .. فلان .. فلان ..

أعدت طرح السؤال . فصمت ولم يحر جوابا ..

كتاب الجغرافيا رسم أمامي الخريطة :

ـ أنظر .. ها هوذا الوطن .. ها هي ذي الحدود .. ها هي ذي الجبال والانهار والبحار ، وها هي ذي المدن الكبرى والمدن الصغرى والقرى ومراكز الجيش والبوليس .. وها هو ذا العلم يصطفق في الريح .. وها هي ذي .. وها هو ذا .

ـ نعم .. الالوان جميلة ومتناسقة .. ولكن أنا ؟؟

كتاب الادب أرخى جفنيه ، ووقف وقفة مسرحية :

ـ نحن قوم أدباء منذ نعومة الاظفار .. نقول الشعر على ستة عشر بحرا ، ونحيل النثر بين أيدينا الى اعجاز ، نثرنا كله خطب ومقامات. وشعرنا مجموع في بحور أربعة : فخر ومدح ، رثاء وغزل ..

وهاك نماذج من خطبنا ومقاماتنا وقصائدنا المطولة العصماء .

« في أي بحر كنت ؟ في أية خطبة وفي أية مقامة ؟ »

ـ وأنا ؟.. أين أنا ؟

ـ أنت ؟؟

٤ ـ نهاية محشورة حشرا من أجل اللوعظة ، وارضاء للسادة المتفرجين الذين يتوقعون دائما نهايات مسلية حكيمة :

لم يصمم (س) بعد على شيء . ومع ذلك دخل الى قاعة الدرس.

قال لنفسه : الوقت كفيل بامالة احدى الكفتين . الوقت ! ذلك الساحر الازرق الذي يمد عصاه : هوب ، وفي رمشة عين يكون كل شيء قد تغير . ولكن لم يكن هذا يعني الانقياد على أية حال . فالوقت لا يعني اللامحدود .

كانت طاولات القسم مغطاة كلها بأوراق مكتوبة باليد .

وكان بعض التلاميذ ـ متجمعين في أحد الاركان ـ يقرأون احداها.

رفع واحدة ، وأخذ يقرأ :

« أيها الرفاق ..

. . . . . .

. . . . . .

وضع الكتب على الطاولة . انفتحت عيناه . غطتهما طبقة من دمع فرح . أحس انه هو الذي كتب هذا ، بالتأكيد ، وان لم يكن هو ، فحتما كان سيكتب هذا . كم هو واضح وغامض في نفس الوقت هذا الاحساس المشترك .. آه .. سرت دغدغة في الداخل ، بموازاة الاضلاع ، ففتحت الابواب ، وانطلقت مئات العصافير الحمراء ، الخضراء ، الصفراء ، الزرقاء .. تحلق في السماء التي استردت البهجة والرونق .. وتستقر على الاشجار التي استعادت الخضرة القديمة ..

وبعزم وتصميم ، رفع يده الى أعلى ، وهوى بجماعها على الطاولة ثم هتف :

ـ الآن أعرف أين أنا ..

٥ ـ النهاية الحقيقية :

(من المحطة قبل الاخيرة كتب لها ، وحدها التي قاسمته السر :

« الايام حين تبدأ ـ يا رفيقة الاصرار الاحمق ـ في الانسكاب : لا تشاور احدا . هكذا ترفض جلسات التشاور ومخططات الاستسلام ، وهكذا ترفض العيون المهمة الجادة التي تحمل حقائب سوداء ، بذلا سوداء ، نظارات سوداء وبسمات سوداء ، من مكان لمكان بحثا عن عدسات الصحفيين ، وميكروفونات الاذاعة » ..) .

الدار البيضاء — **مصطفى المسناوي**

دار الآداب تقدم

العراء

مجموعة قصص

بقلم الدكتور سهيل ادريس

يصدر هذا الشهر